

أقوال وأقاييل

لعالم النشر في البلاد الأوروبية عادات متفق عليها، تتكرر في كل فترة من فترات الثقافة العامة على نمط يناسبها.

وإحدى هذه العادات التي لاحظناها غير مرة في هذا الباب أن مواسمهم «الطباعية» لا تمر في سنة من السنين دون أن تظهر في الموسم بعد الموسم منها كتب عدة عن الإسلام والبلاد الإسلامية.

وقد تلحق بهذه العادة عادة أخرى تلاحظ في الكتب التي لم يخصصها المؤلفون بالموضوعات الإسلامية ولم يقصروها عليها؛ فقد يصدر الكتاب عن موضوع في موضوعات التواريخ والرحلات، أو موضوع شائع يتعلق بالحياة البشرية من أدوارها المختلفة، فلا ينسى مؤلفه أن يتناول شيئاً من الدراسات الإسلامية من جانبها الفكري أو جانبها التاريخي أو جانبها السياسي، أو جوانب الأخلاق والمصالح الاجتماعية، فلا ينفصل موضوع الإسلام عن موضوع التاريخ الإنساني، ولا سيما التاريخ المتصل بتطور العقائد والنظم الاجتماعية.

وبين يدي الآن خمسة كتب وصلت في بريد واحد، أربعة منها تتناول الكلام عن الإسلام والمسلمين من بعض النواحي العامة أو الشخصية، والخامس منها قد خلا من الكلام عن الأديان عامة، فلا ذكر فيها للإسلام ولا للمسيحية ولا لليهودية أو البوذية؛ لأنه بحث مقصور على العلاقة بين الكيمياء والحياة الحيوانية.

وأقرب هذه الكتب إلى موضوعات الدين كتاب ألفه الأستاذ ف. ك. هابولد Hapold عن المذاهب الباطنية، أو المذاهب التي يجوز أن نطلق عليها اسم «الصوفية»؛ لما في التصوف أحياناً من أسرار روحية يعلمها بعض أهلها، ويشيع بين طلابها ومريديها أنها تخفى على غير الواصلين.

تكلم هابولد عن كل طريق من طرق الصوفية المشهورة في عقائد الهنود والفرس والمسيحيين الأقدمين والمحدثين والإسرائيليين في نشأتهم بفلسطين على الخصوص، وأفرد للصوفية الإسلامية فصلاً كبيراً معززاً بالشواهد من الشعر والنثر في كتب الأقطاب البارزين من شيوخ الطريق بين الشعوب الإسلامية، فذكر جلال الدين الرومي والجامي وابن الفارض والطارق والحلاج والبسطامي، وغيرهم ممن لم يشتهروا في الشرق والغرب مثل شهرتهم، وذكر حجة الإسلام الغزالي؛ ليسند إليه ميزان الاعتدال بين المذاهب الصوفية التي يرضاها أهل السنة وبين المذاهب التي تجاوزت حدَّ الاعتدال وبلغت من الشطط في القول بالحلول ووحدة الوجود حدًّا لا ترضاه الجلة من أئمة الإسلام ...

وأ نصف المؤلف إذ قال: إن الإسلام أشد الديانات الكبرى حرصاً على تنزيه الذات الإلهية من عوارض البشرية والتجسيم، سواء ظهرت في القول بامتزاج الإنسان بالإله، أو امتزاج الإله بالإنسان، أو ظهرت فيما يسمونه بالتجلي، ويعنون به رؤية «الحق» في صورة إنسان أو مخلوق من المخلوقات.

وقسطاس الاعتدال كما شرحه الإمام الغزالي في مشكاة الأنوار: أن العابد يفنى في حب الله وينسى أنه فان؛ لأنه ينسى ذاته، ولا يذكر وجوده الباطل إلى جانب الوجود السرمدى الحق في الذات الإلهية، فليس هناك وحدة أو حلول أو امتزاج بين ذات الخالق وذات المخلوق، وإنما هناك الحب الذي يبطل «الأناية» كما تبطل الأثرة في نفس العاشق؛ حباً للمعشوق، ولكن مع الفارق الشاسع بين العشق الإلهي وبين عشق الإنسان للإنسان. والكتاب الثاني عن الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق بقلم الأستاذ تيموتي وير Were الذي تخصص للبحث في تاريخ الأديرة والرهبانات الشرقية مع تاريخ الشعائر والنحل التي يدين بها الرهبان المنتمون إليها، وقد أشار في عرض الكلام على تاريخ بيزنطية إلى أحوال الكنائس والقساوسة وسائر أتباعها وأتباعهم في ظل السلاطين العثمانيين، فشهد للدولة الإسلامية بالسماحة في معاملة الرعايا المسيحيين، وقال: إن السلاطين لم يقصروا عن أباطرة الروم في رعاية البطارقة الكبار ورؤساء الدين على العموم. إلا أنه عاد فقال: إن السلطان كان ينظر إلى رعاياه من المسيحيين كأنهم طبقة ثانية بعد الطبقة الأولى من رعيته المسلمين. وقد يكون الخطأ في كلام المؤلف هذا راجعاً إلى إهمال المقارنة بين السلاطين والأباطرة في معاملة المذاهب المختلفة، وإلى نسيان المقارنة بين الأجناس في واجب الإخلاص للدولة التي يتبعونها.

ولو أنه قارن بين السلطان والإمبراطور — أي سلطانٍ وأيِّ إمبراطورٍ — لعلم يقيناً أن الإمبراطور كان يأبى على المسيحي الذي يخالف مذهبه أن يعيش في ظله أمناً

على حياته مساوياً لأخيه المسيحي في حقوقه وحرية اعتقاده، ولم تكن عنده طبقة أولى وطبقة ثانية في رعاياه، وإنما كانت الرعية طبقة واحدة يحق لها الوجود، وطبقات أخرى لا توجد في ظله إلا على خوف وحذر وحرمان من حرية العبادة بغير مصادرة واضطهاد.

وقد يعلم المؤلف من مقارناته لأسباب التفرقة بين رعايا السلطان أنهم يفترون اضطراراً بحكم الفوارق الجنسية والعنصرية، وأنهم يعاملون بحسب إخلاصهم للدولة التي تعاملهم؛ تفرقة في درجات الولاء، لا تفرقة في الحرية الدينية التي تكفلها الدولة لأهل الذمة من رعاياها.

والكتاب الثالث عن بونابرت في مصر للكاتب الإنجليزي كرشيفو هيرولد الذي يكتب عن التاريخ الفرنسي والشخصيات التاريخية بأسلوب التبليغات الصحفية، ويجيد الوصف في هذا الأسلوب غير مستخف بأمانة التحري التي يغفل عنها كثير من طلاب التهويل والاستثارة بين المؤرخين الصحفيين أو الروائيين المؤرخين.

وفي الكتاب بيان مفصل لكثير من الحوادث والمشاهد، وكثير من القضايا الاجتماعية والأزمات السياسية والعسكرية، ولكن عناية المؤلف بنظرة نابليون إلى هذه الأمور وخطته في تدبيرها وتصريفها مع دولته ومع المصريين والعثمانيين كانت أهم وأعظم من عنايته ببيان الحوادث لذاتها أو بيان آثارها ونتائجها، وربما كانت عنايته بموقف نابليون من علماء الدين وموقف علماء الدين من البعثة العلمية التي أحضرها معه للدرس والاستطلاع هي الفصل الذي يقال عنه: إنه بيت القصيد بين سائر الفصول، وإنه أجمع الفصول لأسباب التعريف بعبقرية نابليون الذي يحسبه المؤرخون بين عظماء القادة العسكريين، وتظهره مواقفه من قادة المجتمع المصري الروحيين في مظهره الغالب عليه؛ وهو مظهر الزعيم الاجتماعي المحنك، والقائد السياسي، أو الدبلوماسي، في أكثر الأحيان. وكان نابليون يرى بعد اختباره لكبار علماء الأزهر أنهم أهل للتوقير والاحترام بحق العلم والمعرفة، وحق الورع والتقوى، وحق الخلق الكريم والحكمة الراجحة، وليس بالقليل منهم من كان أهلاً للتوقير والاحترام بحق الثراء وحق النسب العريق، وكان في مسلكه نحوهم وتودده إليهم يؤمن بأنهم — دون غيرهم — مناط القدوة الاجتماعية ومرجع الطاعة والاعتبار للهيئة الحاكمة، وقد حاول أن يستخلص منهم آخر الأمر بالمعاونة على المشورة ما يدعو إلى اجتناب الثورة والتمرد من جانب المصريين.

ويقول مؤلف الكتاب: إن علماء الأزهر قد احتفظوا بوقارهم ورسالتهم العقلية أمام عجائب العلم الحديث التي خيل إلى علماء البعثة أنها تقع عندهم موقعَ السحر من أبناء الشعوب البدائية، ولكنهم قد نظروا إليها — فعلاً — نظرتهم إلى حيل السحرة وأصحاب الشعوذات وإن كانوا قد فهموا أنها تستند إلى علم جدير بالتحقيق من قبيل ما عرفوه أو سمعوا به من حكمة الأولين.

قال المؤلف: إنه لم تَمْضِ حقبةٌ قصيرة على عهد نابليون حتى كان الأفريقيون والآسيويون قد علموا ما وراء تلك الحيل من أسرار الكهرباء والكيمياء، وتبين أن السذاجة كانت من نصيب علماء الحملة؛ لأنهم قدروا الدهشة في غير موقعها من عقول أولئك الحكماء.

ومما يؤخذ من طرائف هذا الكتاب مأخذُ التأمل والاعتبار أن نابليون، على رغبته في العلم بأحوال مصر وأحوال الجامع الأزهر على الخصوص، قضى أيامه بمصر وهو يعتقد أن الجامع الأزهر أثر من آثار صلاح الدين، ويأخذه الزهو بهذه العلاقات الأزهرية التي جمعت بينه وبين البطل الإسلامي الكبير في مقام واحد!

وختام ما نقله من الكتب الأربعة فصل عن الساعات الأخيرة في حياة الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله، وهو فصل من فصول الكتاب الذي ألفته السيدة ماري رولات بنت السير رولات محافظ البنك الأهلي على عهد الاحتلال، وقد اختارت لكتابها اسم «بناة مصر الحديثة»، وقصدت بهم بناة النهضة منذ عصر الثورة العربية، وأولهم في تقديرها الأستاذ الإمام رائد الدعوة الثقافية — الروحية — قبل الجيل المعاصر.

ومعظم معلوماتها عن نشأة الأستاذ الإمام مستمدة من تراجمه العربية، ولكنها اعتمدت على مصادرها فيما نقلته عن أخباره الأخيرة، وكتبت ما أوردهت منها بأسلوب ينمُّ على التعظيم والإكبار.

قالت: «إنه كان يحس آلام المرض قبيل وفاته، ولكنه كان لا يزال مشبع النفس بكثير من مشروعات الإصلاح ونيات السعي والعمل: صحيفة كبرى، وجامعة جديدة، وسياحة إلى فارس والهند وروسيا؛ لتفقد أحوال المسلمين فيها، وتدعوه ضرورة الصحة — أولاً — أن يبدأ بالسفر إلى أوروبا للعلاج وإن لم يشعر يومئذ بمبلغها من الخطر ... وكان يزور صديقاً له برمل الإسكندرية لقضاء أسبوع عنده قبل الإبحار إلى أوروبا، ولكنه لم يلبث أن شعر باشتداد وطأة المرض وتبريح الألم والاضطراب، وأقعدته الوهن

عن الحركة، ثم تعذر عليه النطق فلم يسمع منه غير ذكر اسم الله يستمد منه العزم والعزاء، وطفق يردد في صوت يشبه الهمس الخافت: الله أكبر ... الله أكبر ... وأدرسته زوجته بما وسعها من العطف والرعاية وهي تصغي إليه فلا تستبين ما يقول، إلا أن تفهم من حركة الشفتين أنه يوالي التسبيح بكلمتي التكبير: الله أكبر ... الله أكبر ... ولم يكد يستطيع قبل أن تفيض روحه إلى بارئها غير التكبير والابتسام وهو ينظر إليها ... وقد وقف القطار الذي يحمل جثمانه من الإسكندرية إلى القاهرة في غير مواضع الوقوف؛ قضاءً لواجب الحزن والتشييع ممن كانوا ينتظرونه في الطريق ... واجتنبت مظاهر التقليد في الصلاة عليه؛ وفاءً للراحل الذي قضى حياته في كفاح التقليد والعزوف عن باطل الثناء، ولكن المشيعين له من المسلمين وغير المسلمين كانت تغمرهم غاشية الحزن العميق، وشوهد بين الجمع رجل يغلبه النحيب، فأقبل عليه صديق يعزيه ويشاطره المصاب، فنظر إليه وهو يقول:

إنه لا يبكي شجوه وحده، ولكنه يبكي لأولئك المحرومين الذين كان من عمله أن يطوف عليهم بالصدقات في كل شهر من مرتب الشيخ ... وقد كان عظيمًا فقيرًا في الحياة، وقضى نحبه وهو فقير عظيم.

ولم يسلم كتاب السيدة رولات من الأخطاء والسهوات، ولكنها أخطاء وسهوات كأمثالها مما ورد في كتب هذه المجموعة، قد تُحْمَلُ على نقص العلم بالواقع واختلاف النظر إليه، قبل أن تُحْمَلَ على سوء النية.